بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمة

سعدى الكنية ثم بنت الأمير بشير من قصر بيت الدين إلى المنفى إلى العودة

بين الوجوه اللبنانية العذبة سعدى بنت الامير بشير الكبير. وجه مغمور كادت تفوته الشهرة ويغطيه النسيان، لولا ان تكنّى الامير بشير به واصبح يُعرف بـ"ابي سعدى". هذه كلمة عن سعدى مقتطفة باختصار من حياتها المتواضعة.

انجبت الست شمس، الزوجة الاولى للامير بشير الشهابي الثاني الكبير ثلاثة اولاد ذكورا هم الامراء قاسم وامين وخليل، كما رُزق بابنتين من زوجته الثانية الست حُسن جهان هما سعدى وسعود.

رأت سعدى النور سنة 1831 في بيت الدين، فاشاع مولدها البهجة والمسرة في قلب الأمير الحاكم، ولبس القصر حلل الزينة والفرح لهذه المناسبة السعيدة. اطلق عليها والدها هذا الاسم، سعدى، للاعتقاد الذي كان سائدا بين الناس في لبنان ولا يزال جزئيا في بلادنا، وهو ان مدلول الاسماء الخيرة يجلب الخير لاصحابها، ويؤثر تأثيرا حسنا في ما يخبئه لهم المستقبل من مفاجآت.

سعدى وسعود اسمان يشتق اصلهما من فعل "سَعِدَ" بمعنى ظفر بالسعادة والحظ في الحياة. هكذا سمى رب عائلة ابناءه الذكور اسعد، وسعيد، وسعود، وسعد... تيمناً بحسن الطالع، وطيب الفأل. وكثيرا ما كانت التقديرات تأتي بما يُصدّق حدسهم ويؤيد نظريتهم.

اما الامير بشير فكان دائما يُعرف بأبي سعدى قبل ولادة ابنته البكر هذه وبعدها. ذلك ان بعض اسماء الاشخاص في لبنان ما تزال الى اليوم تتبعها كنيات يُعرف بها اصحابها حتى ولو كانوا عازبين أو متزوجين وليس لهم بنون. خذ مثلا اسم "جرجس"، فإن صاحبه يدعى حسب العرف والعادة عندنا ابا عساف، والياس ابا ناصيف، وانطون ابا فارس، وفيليب ابا امين، وهكذا دواليك. ويظهر ان بشيرا كان يُكنّى تمشياً على هذه القاعدة بأبي سعدى.

الذي يؤيد نظريتنا هذه ان نقولا الترك، شاعر الامير، اطلق عليه هذه الكنية في بعض قصائد له قالها في مدح الحاكم الفولاذي الجبار. قال مادحا سيده سنة 1817، قبل ولادة سعدى بأربع عشرة سنة:

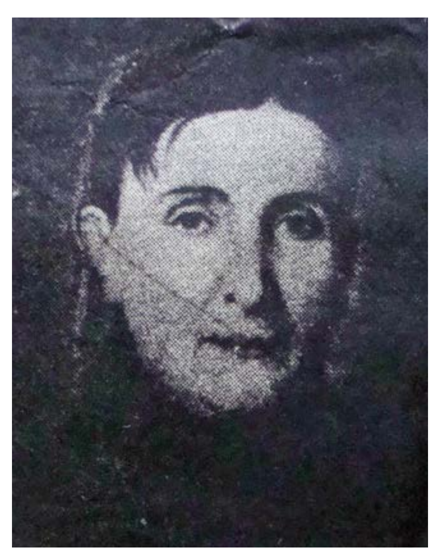
مَولايَ دُمْتَ مَدَى الزَّمانِ مؤيَّداً
وعليكَ نَصْرُ اللّهِ دامَ مُخَلَّدا
ولِعَضْبِكَ الفَتّاكِ تُحْنِى، يا أَبا
سَعْدى، مَدى الأَيَّام، أَعْناقُ العدى

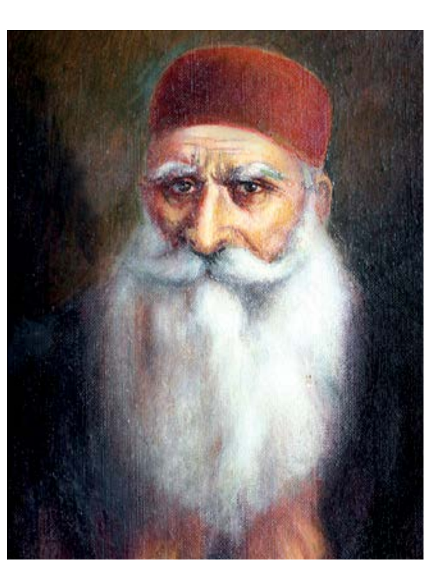
كانت سعدى ابنةَ تسع سنوات تقريبا لما تركت قصر بيت الدين مع والدها وافراد اسرتها في طريقهم الى المنفى سنة 1840. يقول رستم باز، مرافق الامير، في مذكراته الشهيرة ما معناه انه حمل الست سعدى على ظهره من قصر بيت الدين الى قاطع نهر صيدا الأولي.

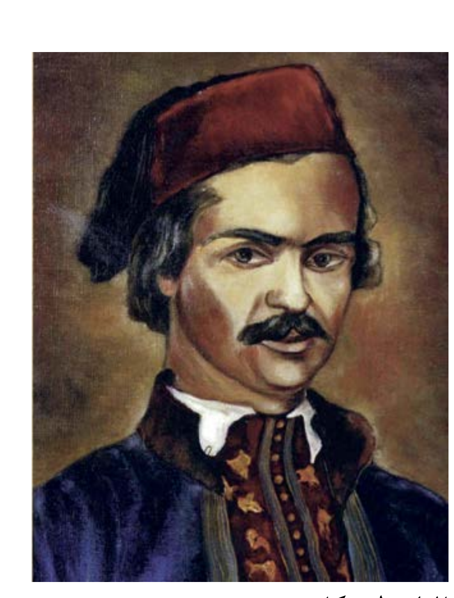
هناك في اسطنبول شاطرت والدها ألم الاسر، فاقامت معه سنوات وهي تنمو وتكبر وعليها دلائل الجمال والمهابة. اخذ الامير يفكر في امر زواجها. لا يريد ان يخرج من هذه الدنيا من دون ان يكون مرتاحا الى مصير ابنتيه سعدى وسعود.

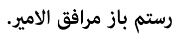
مما قاله رستم باز في مذكراته المتقدمة الذكر ما ملخصه: "... وكتب الامير من اسطنبول الى ابن أخيه عبدالله ليرسل له ابنه الامير سليما للاقتران بابنته سعدى المربوطة له. كتب الى الشيخ يوسف حبيش يقول: اختر لي شابا يكون لائقا ومهذبا، سواء أكان شهابيا أم لمعيا، لأزوّجه من ابنتي سعود". في أقرب وقت حضر العروسان الى اسطنبول. قال الفقيه المرحوم جرجس صفا نعمه: "سألت الامير سليماً كيف تتزوج من بنت الامير بشير سعدى والامير بشير احمد اللمعي يتزوج من الاخرى سعود وانتما لا تعرفانهما ولا هما تعرفانكما؟، فأجاب: "إن الامير بشيرا، عمي، ارسل الى الامير بشير احمد (قائمقام النصارى سابقا) يطلب اليه ان يرسل اليه ولده الامير خليلا، وصرّح له بأنه يرغب في أن يزوّجه بنته، وارسل يطلبني مصرِّحاً لي بذلك. وقد طلب الامير خليلا لأنه كان يعرف انه كفء لابنته نسباً وغنى وجاها لأن اباه كان قائمقام النصارى. وهو اغنى الامراء اللمعيين واوجههم، واما انا فلأني ابن الأمير عبدالله ابن الامير حسن الذي هو شقيق الامير بشير".

تم زواج الاميرة الست سعدى من ابن عمها الامير سليم عبدالله حسن شهاب في 17 تشرين الاول سنة 1849 الموافق للتاريخ الشعري الهجري الذي نظمه للمناسبة شاعر الامير بطرس كرامة الذي كان معهم في المنفى، وهو مثبت في ديوانه ومطلعه:


صورة زيتية للست سعدى رسمها رسام ايطالي.


الامير بشير الثاني الشهابي الكبير.


المعلم بطرس كرامه.


رستم باز مرافق الامير.

قارَنَ البَدْرُ بالمَسَرَّة شَمْساً
يتسامى به الزمانُ السعيدُ

وختامه:

فاقْترانُ الجَمال، أرِّخْ، ينادي:
"يا سَليمُ اقترانُ سَعْدى سَعيدُ

قال رستم باز في مذكراته: "... ثم دار العرس، فاحضروا منجّدين من الذين يعرفوا يزيّنوا أُوْضة العروس بمعرفة السيد احمد الدركزلي. فأتوا باربعة شوالات معباية بزنجك (قماش من الحرير الرفيع) من جميع الالوان. في الاول غطوا حيطان الاوضة بقماش صوف معرّش لون ازرق سماوي، والثاني مثلها، والسقوفة، واخذوا يشتغلوا من البرنجك ليمون بردقان، وحامض، وحلو بورقه واغصانه، ونجاص، وتفاح، ودريق، وخوخ، ومشمش، ورمان وسفرجل كلها باغصانها، وجوز اخضر، وقشطة وكرز، واخذوا يعلّقوا هذه الاغصان في اربع حيطان الاوضة على الترتيب. وفي السقف عريشة مالية كل السقف وعناقيد العنب مدلاية. كل هذا لا يمكن ان تفرق عن اصلها. وكل شغلها بشريط نحاس أصفر. وتبقى هذه الزينة عشرين يوما. وجلبوا نوبتين: رجال الى الرجال، ونساء الى النساء، ثمانية ايام. واعطوا النوبتين أربعة آلاف قرش. وأمر الامير لكل خادم بثلاثمائة قرش ثمن طقم يشتريه على ذوقه. وانتهى العرس".

عثر احد شيوخ دير القمر سنة 1900 بين اوراق الامير بشير، في دار قرينته الست حُسن جهان افروز في قرية الجية، على "علم جهاز" الست سعدى في قاضي كوي، وهذه تفاصيله:

-1500 لولو مثقال 57 مشكل
-9000 ريشة الماز
-11000 شعشاي برلنتي
-26000 تشكيلي سلك كبير
-17500 ساعة محجّرة
-1500 زنار مكلّل
-10000 سوار ذهب محجّر
-9000 فرفار ألماز وقرط مطاول
-2000 جنزير ذهب للرقبة
-15500 خاتم ألماز ودايره ألماز
-12500 حلق لولو مكلّل
-30000 شبر في الفلك
-90000 ظرف محجّر على ذهب
-10000 لكن وابريق فضة للغسيل كبار
-9500 شماعدين فضة عدد 4
-4000 ايضا لولو حب كبير مثقال عدد 10

رجعت الست سعدى وزوجها واهل بيتها الى بيروت سنة 1851 بعد وفاة ابيها الذي كان يغمرها بعطفه وحنانه، واستقرت نهائيا مع زوجها في قرية الجية حيث كان للامير بعض الاملاك.

وهبهما الله البنين، ولا يزال احفادهما مستقرين في قرية الجية ونعرف منهم الاميرين اميل وبشيرا.

على أثر داء عضال توفيت الست سعدى سنة 1884 عن عمر ناهز الـ54 سنة، ودُفنت في مقبرة الشهابيين في دير مار انطونيوس بعبدا. في رواية للاب عمانوئيل الليلكي، وهو كاهن مسن من الرهبنة الانطونية، ان هذه المقبرة نُقلت الى الجية، ومعها رفات الاميرة سعدى، عندما تم انشاء مقبرة جديدة للشهابيين هناك.

بيع رسم سعدى للحكومة اللبنانية بمبلغ عشرة آلاف ليرة لبنانية وعُلِّق في احد مكاتب دار الآثار في بيروت.